الممارسة النّصّيّة عند علماء القرآن
دراسة في علم المناسبة

Textual practice for the Qur'an scholars
A study In science El Mounassaba

أحمد مباركي[1]
جامعة "زيان عاشور" الجلفة. الجزائر
mebarkiahmed17@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/01/27 القبول 2021/08/30 النشر على الخط 2021/11/30
Received 27/01/2021 Accepted 30/08/2021 Published online 30/11/2021

ملخص:

هذا المقال يحاول أن يقف على مدى مساهمة علماء التّراث في رسم معالم الدّرس النصّيّ، وذلك من خلال قراءتنا لبعض جهود علماء القرآن، لاسيّما في مبحثهم **"علم المناسبة"** وهم بصدد ضبط المقوّمات النّصّية وتحديد الرّوابط الشّكليّة والدّلاليّة في النّصّ القرآني. وقد ابتغينا، من وراء ذلك، التّعريج على أهمّ المنطلقات والأسس المعرفيّة التي ارتكزت عليها جهودهم، وبسط المقولات والقواعد الإجرائية التي مكّنتهم من الوصول إلى مختلف العلاقات والروابط الّتي انتظمت بها أجزاء القرآن وتلاحمت بنويّا ودلاليّا. فلقد تبيّن لنا بأنّ التراث العربي بمختلف روافده يزخر بالكثير من الجهود التي تستحق الوقوف؛ لاسيما علوم القرآن حيث انكشف لنا بأنّ العلماء السلف كانت لهم إسهامات تنبئ عن ممارسات نصية رائدة. كما نودّ، من وراء هذا البحث، التّساؤل عن درجة استثمار ما توصّل إليه علماء القرآن من ممارسة نصّيّة في حقل الدّراسات الأدبيّة والنقديّة.

الكلمات المفتاحية: علماء القرآن، ممارسة نصية، روابط شكلية و دلاليّة .

Abstract:

This article is an attempt to know the extent of scientists of heritage to contribute to draw the milestones of textual lesson, from our reading to some efforts of scientists of Koran, particularly in their research EL MOUNASSABA Science in the accuracy of the textual components and to determine the formal and semantic linkages in the Quranic text, we have aimed to stop over on the most premises and epistemological basic where their efforts depend on, and they also extend both categories and procedure rules that had enabled them to reach to different linkages and relationships that the Koran parts have organized and coalescenced either structurally or semantically, and we wonder about the benefits about what the Koran scientists hire in the critical and literary studies.

Keywords: scientists of Koran, textual practice, formal and semantic linkages

[1] - المؤلف المرسل: أحمد مباركي البريد الإلكتروني: mebarkiahmed17@gmail.com

1. مقدمة:

موضوع بحثنا هو عبارة عن دعوة متواضعة إلى تجديد النّظر في تراثنا المعرفيّ بكلّ روافده وبمختلف مجالاته، وفق كيفيّة فاحصة لا تدّعي الأسبقيّة والرّيّادة، وإنّما تزعم محاولة استثمار الآليّات التّحليليّة والأدوات القرائيّة الحديثة لفهم جديد وصحيح لما توصّل إليه علماؤنا السلف، قصد استكمال ما بدؤوه، وتوظيف ما حققوه في خدمة الثقافة والفكر، وتحقيق التنمية البشرية. وإذا كان من نافلة القول التّذكير بما أحدثه القرآن الكريم من أثر كبير في حياة العرب وغيرهم من العالمين، فإنّه من الضرورة بمكان، التنويه والإشارة إلى ما مثّله وما ينبغي أن يمثله من دور مركزي في حضارة العرب والمسلمين. باعتباره نصّا محوريّا، انبثقت من الاشتغال عليه وعلى قضيته الجوهرية المتمثلة في الإعجاز، الكثير من العلوم والمعارف على غرار علوم اللغة والبلاغة والفقه والتفسير والإعجاز وغيرها.

ويأتي هذا البحث ليحاول الكشف عن بعض جهود علماء القرآن في مبحثهم المنعوت بعلم المناسبة، فالذي يبدو لنا هو أنّ هذا المبحث الفرعي يحمل الكثير من النّظرات والإشارات التي هي بمنزلة إسهامات تؤسس للدرس اللّسانيّ النّصّيّ. فما هي تجليات ممارساتهم النصية؟ وما هي المنطلقات والقواعد التي أسّست لمباحثهم؟ ثمّ ما هي المقولات والقواعد الإجرائية التي اعتمدها علماء القرآن في ضبط الروابط الشكلية والدلالية، والّتي من شأنها أن تحقّق التّناسب الجزئيّ والكلّيّ بين آيات وسور الذكر الحكيم؟

ولإثارة هذه التساؤلات ومناقشتها؛ اعتمدنا منهجا يزاوج بين رصد الملامح التي تومئ إلى كلّ ما تعلّق بالاشتغال النصّيّ من قبل علماء القرآن، وتحليل هذه النّظرات ومطارحتها مقارنة بما توصّل إليه علماء الدرس اللّسانيّ النّصّيّ المعاصر. وهدفنا من وراء هذا البحث هو إعادة استقراء ما أنجزه علماؤنا وما خلّفوه، وفق كيفية فاحصة دقيقة؛ تبتغي إزالة الغموض والتغييب عن مثل هذه المجهودات الجبارة، قصد التعريف بقيمتها العلمية والحضارية، ثمّ لاستثمار هذه الكنوز بما يخدم العلم والمعرفة.

2. علوم القرآن وعلاقتها بالعلوم التراثية:

لقد تعدّدت الجهود، وتنوّعت المساعي منكبّة على النّصّ القرآنيّ؛ تدرسه وتبحث في ثناياه، حتى تجسدت في علوم ومباحث فرعية، كشفت عن منظومة معرفية تنوعت مناظير بحثها. إلّا أنّها بقيت، أي هذه المباحث الفرعية، مترابطة الأجزاء منسجمة الغايات، تدور حول النص القرآني الكريم، تنطلق منه وتعود إليه، وهو ما اصطلح عليه في تراثنا، بعلوم القرآن.

هذا الاتّجاه البحثيّ، الذي تلتقي جهود علمائه في كثير من المناحي مع جهود المفسّرين والبلاغيّين والنّحاة، فإنه يكاد يمثّل- هذا الاتّجاه- النقطة الحاسمة في استكمال ما توصّلت إليه دروس النّحو والبلاغة والتّفسير والإعجاز، واستثمار ما ألمت به من قضايا ومباحث تخصّ مكوّنات التّشكيل اللّغويّ؛ بداية من الحرف منفردا ومؤتلفا، إلى الكلمة مستقلّة بنفسها ومتعلّقة بغيرها، إلى التّراكيب في مختلف هيئاتها الائتلافيّة وما يتعلّق بها من خصوصيّات، وما يكون بينها من تباين و تمايز، إلى الأساليب وما تنطوي عليه من حسن نظم، وجمال تعبير، في إيراد المعاني والدّلالات.

لقد كانت كل هذه القضايا وغيرها بمثابة القاعدة الأساسية والأرضية الخصبة التي أنبتت هذا الاتّجاه. ومكّنت علماءه من الانتقال بهذه الجهود الجبّارة من أفق الجملة وما تحويه من مكوّنات، إلى أفق النصّ وما تحكمه من مقوّمات.

3. علم المناسبة وتقاطعه مع الدّرس اللّسانيّ النّصّيّ:

فلقد تجاوز علماء القرآن، لاسيّما في مبحثهم علم المناسبة، الكشف والتنقيب عن آليّات التّرابط داخل الآية الواحدة إلى الآيات، والسّورة الواحدة إلى السّور المتعدّدة. فقدّموا بذلك الكثير من النّظرات والإشارات التي تلتقي مع ما قرّرته لسانيّات النّصّ وتحليل الخطاب من مقولات وقواعد إجرائية. وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المقام؛ التّنبيه إلى بعض المباحث التي تطرّق لها العلماء في درس المناسبة، عل غرار التّصدير والتّوشيح والإيغال والتمكين وهي ظواهر تحقق التّناسب الجزئي –أي داخل الآية الواحدة– في جانبيه اللّفظيّ والمعنويّ. بالإضافة إلى ما تناولوه من علاقات تخصّ التّناسب الكلّيّ بين الآيات والسور؛ ويتبدّى ذلك في ما عرضوا له من مباحث تسعى لتوضيح ما بين أجزاء الخطاب القرآني من وشائج بنوية ودلالية؛ تمثّل ذلك في تفسيرات العلماء للكثير من المباحث التي تؤكد على أنّ النّصّ الكريم كلّ واحد متماسك المباني منسجم المعاني؛ وذلك ما نلمسه في بسطهم للعديد من العلاقات كالتتميم والإجمال والتفصيل وبراعة الاستهلال وحسن الخاتمة وغير ذلك مما لا يمكن الإحاطة به في هذا المقام، فحسبنا التلميح إلى أنّ هذه الاجتهادات هي ممّا يمكن اعتبارها نظرات رائدة في حقل الممارسات النصّيّة. خاصّة وأنّ هذه الشبكة المفاهيمية، ممّا اشتغل عليها علماء القرآن في حقل درس المناسبة، تشبهها، إلى حدّ كبير، تلك المعايير التي يشترطها علماء اللسان في نصيّة الخطاب، وتحقّق اتّساق بنية النّصّ وانسجامه. ذلك أنّ المؤكّد هو أنّ علماء القرآن قد انشغلوا منذ البداية بالنّصّ القرآنيّ يتدارسونه ويبحثون في علومه، وفق وجهة كلية؛ لا تقف عند الشاهد المفرد، و المثال المقتطع من نصه وسياقه، بل تنظر إليه على اعتباره نصا واحدا اكتملت سوره و ترتبت، مثلما تلاحمت آياته وتعانقت.

إنّ مطلبنا المحدّد في الوقوف على مدى مساهمة علماء القرآن في رسم معالم الدّرس النّصّيّ، وضبط مقوّماته النّصّيّة، من خلال الإحاطة بأهم ما توصلوا إليه من نظرات تخصّ الرّوابط الشّكليّة، والدّلاليّة في النّصّ القرآنيّ، يستدعي منا بداية التعريج على أهمّ المنطلقات والأسس العقدية والمعرفية التي ارتكزت عليها جهود العلماء، وبسط المقولات الكليّة والقواعد الإجرائية التي أسست لمباحث علم المناسبة، ومكّنت من الوصول إلى مختلف العلاقات والروابط التي انتظمت بواسطتها الآيات والسور. ثم التساؤل عن درجة استثمار هذه الجهود وهذه الموارد، أم ظلّت هذه الآراء مستبعدة مغيّبة.

4. بين علم المناسبة وعلم أسباب النزول:

كما هو معلوم، لقد اختصّ علم المناسبة بالبحث في أوجه التّرابط بين الآيّات والسوّر في الترتيب القرائيّ للنّصّ، ما يطلق عليه " ترتيب التلاوة ". واختصاص علم المناسبة بدراسة العلاقات بين أجزاء النص في صورتها النّهائية، هو ما يميّزه عن علم أسباب النّزول الباحث في دراسة أجزاء النّصّ من حيث علاقتها بالسياقات والظروف الخارجية[1].

إنّ هذه المفارقة لدليل قاطع على ما يتّصف به، وما يحتويه القرآن الكريم من أسرار إعجازية ستظلّ مدعاة للتباحث والتساؤل؛ إذ كيف لهذا النّصّ القرآنيّ الذي نزلت وحداته منجّمة في شكل خطابات تراعي السياقات المختلفة، وأقدار السامعين وأفهامهم وأوضاعهم بحسب الوقائع والمقتضيات – نقول– كيف به أن يتشكّل نصّا موحدا متماسك البناء، منسجم الدلالة. فهو بحق نصّ

[1]– ينظر، حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط6 س2005 ، ص160.

معجز في نزوله؛ مفرّقا منجما بحسب الوقائع والأحداث، معجز في ترتيبه النهائي؛ نظما وتأليفا، فهو كما قال تعالى : ﴿**الٓر كِتَٰبٌ أُحكِمَت ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [سورة: هود الآية 1].

5. المنطلقات و الأسس الفكريّة والمعرفيّة لعلم المناسبة:

لقد اعتبر القرآن الكريم كلّه آية واحدة، كما يشير إلى ذلك "**الزركشي**"، فهو بنية نصية متماسكة متلاحمة الأجزاء «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جمّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها و ما سيقت له»[1].

ولعلّ استئناسنا في هذا المقام بما قدّمه "**البقاعي**" في تعريفه لهذا العلم، مشيراً إلى موضوعه وفائدته، دليل على أنّ هناك نصوصا تأسيسية سابقة، ظهرت بوادرها مع مطلع القرن السادس الهجري، حيث يقول "**برهان الدين البقاعي**" عن علم المناسبة في كتابه "**نظم الدرر**"ج1ص6 ،هو: « تعرّف علل الترتيب، وثمرته الاطّلاع على الرّتبة التي يستحقّها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن، علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال»[2].

فعلماء القرآن قد سلموا بداية، بوجود وشائج وروابط، تعانقت بواسطتها الآيات وتلاحمت السور. و على القارئ؛ باحثا أو مفسرا أن يكشف هذه العلاقات ويبيّن طبيعتها ويحدّد وظيفتها، وفي ذلك إجلاء لأسرار بلاغية ووجوه إعجازيّة ساهمت في مطابقة المعاني لما يقتضيه حال الخطاب.

وهذا التسليم المبدئي بوجود مناسبات بين أجزاء القرآن الكريم؛ آيات وسورا، هو تسليم مترتب عن اعتقاد راسخ لدى علماء القرآن، مفاده أنّ القرآن الكريم نص لغوي صياغة وشكلا، آمنوا بألوهية مصدره، وشمولية علمه، وسمو مقاصده، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**﴾ [سورة النساء الآية: 82].

إنّه اعتقاد ينطلق من التّسليم بوحدة النّصّ القرآنيّ وتكامل أجزائه. تسليم بانسجام آياته وتناغم سوره، جعل العلماء يبحثون في كل ما من شأنه أن يقيم التناسب بين أجزاء النّصّ القرآنيّ على مستويي اللغة والمضمون، والكشف عن مختلف العلاقات الشّكليّة والدّلاليّة.

ولا شكّ أنّ هذا الاعتقاد يدعمه كذلك ما ذهب إليه **الأشاعرة** من أنّ القرآن الكريم كلام الله الأزلي القديم الموجود في اللوح المحفوظ. مما يعني أنّ النص القرآني له وجود أزليّ سابق على وجوده منجما على الأرض، أي منزلا بحسب الوقائع المختلفة.

أمّا عن المرتكزات المعرفية، التي أقام عليها الدارسون مباحثهم ونظراتهم الفاحصة عن مختلف الروابط والأدوات التي تلاحمت بواسطتها الآيات والسور، فهي مرتكزات متعدّدة تعدّد روافد التّراث العربيّ الإسلاميّ. ولا يخفى على أحد ما تميز به تراثنا المعرفي من تداخل بين حقوله وتوالج بين مجالاته ، إذ لم تكن تعرف الحدود الفاصلة بين قطاعاته المعرفية كما هو حاصل اليوم. الأمر الذي جعل الاستمداد المعرفي لعلوم القرآن متنوّع المصادر متعدّد الموارد، لاسيما مبحثنا هذا، علم المناسبة، الذي استأثر بكثير من جهود

[1]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، س 2006م، ج 1، ص37.

[2]- نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، تح: عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج1، ص6.

العلماء الباحثين في مختلف القطاعات المعرفية التراثية. لعل أبرزها وأقواها مجال البحث في الإعجاز القرآني الذي اشتغل بالقضية الجوهرية التي مثلت محورا مركزيا في حضارتنا العربية الإسلامية، وعنها انبثقت الكثير من العلوم والمعارف التي انصبّت جلّ اهتماماتها على خصوصيات النّص القرآنيّ، وكشف مظاهر تغايره وتمايزه عن باقي النصوص التي عاصرته.

ولقد تمخّض عن هذه الجهود ما أصبح يعرف في تراثنا بنظريّة النّظم، ولكن في حدود أكبر من الجملة. فكرة النّظم الّتي تبلورت مع "**عبد القاهر الجرجاني**" نظرا وتطبيقا في كتابيه "**دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة**"، بعدما أسّس لها كبار أعلام الفكر العربي أمثال "**الرماني**" و"**الخطابي**" و"**الباقلاني**"، و"**الجاحظ**" حيث يقول: « وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج»[1]، أثناء حديثه عن ترتيب الكلام وتنسيقه وخاصة نظم القرآن. وفعلا غدت نظرية النظم التي تجذرت مع العديد من المفسرين أمثال "**الزمخشري**" و"**الرازي**"، غدت على أيدي علماء القرآن الكريم ميدانا واسعا للممارسة النّصيّة اشتغل من خلالها العلماء على إطار أرحب وأوسع من الجمل. وتأكد لديهم بأنّ القرآن الكريم هو في أعلى وأرقى مراتب النظم، فراحوا يبحثون في أسرار نظمه، ووجوه تآلف آياته وتناسق سوره، حتى جاءت بعض عناوين كتبهم على شاكلة "**نظم الدرر في تناسق الآيات والسور**" لـ"**برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي**" ، و"**تناسق الدرر في تناسب السور**" لـ"**جلال الدين السيوطي**" إضافة إلى كتابه المنعوت بـ "**أسرار ترتيب القرآن**" وغيرها من العناوين.

كما لا يمكن، ونحن بصدد استعراض أهمّ المنطلقات المعرفيّة الّتي تأسّست عليها مباحث علوم القرآن، أنْ نغفل جهود علماء النحو، وما توصلوا إليه من نظرات تخص مفهوم الكلام عندهم. والذي يبدو – أي الكلام- أشمل من الجملة ومتجاوزا لها؛ ففي أغلب تعريفاتهم للكلام نجدهم يركزون على شروط ثلاثة هي؛ الاستقلالية أي الاستغناء، والتأليف أي التراكيب بين أجزائه، ثم إفادة المعنى أو تمام الفائدة، ممّا يؤكّد بأنّ الكلام في مفهومه حسب تعريفات النحاة يحاكي مفهوم النص. كما تجدر الإشارة هنا، بأنّه قد جرى العرف في استعمالاتنا اللغوية، وشاع على ألسنتنا أن نقول: هذا كلام مفيد. والقرآن كلام الله ﷻ. وخير الكلام ما قلّ ودلّ. مما يشير إلى أنّ مصطلح الكلام قد اتسع مدلوله لاستيعاب مفهوم النّص، وإن لم يرق إلى مرتبة الاصطلاح العلمي. بل حتى البلاغة في أغلب تعريفاتها المشهورة تؤكد ذلك، فقولهم: « مطابقة الكلام لمقتضى الحال» دليل على أنّ التّخاطب بين النّاس، والتواصل فيما بينهم إنّما يتحقق بمراعاة شروط معينة. فأن يتحقّق في التعبير تناسق أجزائه، وانسجام وحداته في مطابقة أحوال السامعين وأفهامهم فذلك جوهر البلاغة، وذلك هو الكلام الذي اكتملت أجزاؤه بنويا ودلاليا في تأدية الغرض. بل أكّد بعضهم، ونقصد هنا علماء القرآن والمفسرين على ضرورة مراعاة أحوال النظم والتأليف بين مكوّنات الكلام ليتحقّق التّلاحم والتّرابط، ويكون الكلام شبيها بالبناء المحكم، فلقد قال "**يحي بن حمزة العلوي**" في كتابه "**الطراز**": « يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركبة حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذا بعضها بأعناق بعض وعند ذلك يقوى الارتباط، ويصفو جوهر نظام التأليف ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء»[2].

[1]- الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر ، البيان و التبيين ، مكتبة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ت، ج1، ص 383.

[2]- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج 2، ص244.

وكان على أثر ذلك أن شبّه النّقّاد وعلماء البلاغة الكلام الفنّيّ الجميل بالنّسيج والتفويف والتطريز والصياغة والتصوير[1] وغير ذلك، إشارة إلى ما يتوفر عليه العمل الفني من حسن نظم وجمال اتساق بين أجزائه ومكوناته المشكلة لبنيته، التي لا يمكنها أن تستغني عن قانون التناسب. والذي عن طريقه تمتدّ خيوط التواصل والترابط بين أبنية ودوالّ العمل الإبداعيّ لتصنع منه لحمة نصّيّة متماسكة. بل حتى وحدة الوزن والقافية والتماثلات الصوتية والتوازيات التركيبية[2] على مستوى لغة الشعر والنثر، كانت لدى النقاد وعلماء البلاغة بمثابة الروابط والوشائج التي تساهم في بناء النص ووحدته.

ومن ثمّ، كانت كلّ هذه النّظرات بمثابة السّند والدّعائم التّأسيسيّة لعلم المناسبة والّتي يمكن التعويل عليها، حيث تعتمد في رصد وضبط أهمّ المعالم والمعايير الّتي تحقّق التّعالق والتّلاحم بين وحدات النصّ وأجزائه.

إنّ هذه التّصوّرات وهذه الأسس المعرفيّة الباحثة في أواصر التّرابط بين مختلف وحدات النّصّ القرآنيّ؛ آيات وسورا، في محاولتها استكشاف كل ما من شأنه أن يقيم التناسب داخل النص القرآني، سواء على مستوى اللغة أو مستوى الدّلالة، هي عينها جوهر الدّرس النّصّيّ الحديث، الذي يعمل على تحديد المعايير والملامح الّتي إن توفّرت، تحقّقت من خلالها بنية نصية متماسكة منسجمة[3].

وهكذا تهيّأت لعلماء القرآن قاعدة معرفية صلبة جعلتهم ينظرون، من خلال مبحثهم علم المناسبة، إلى القرآن الكريم خارج حدود الجملة، ويمتدون به إلى أبعاد النّصّ والخطاب. ولكن ليس باعتباره ملفوظا لسانيا بحتا، وإنّما باعتباره رسالة إلهية إلى الإنسانية جمعاء، تحمل الكثير من الأبعاد والقيم السامية التي تتميز بالخلود والاستمرارية والصلاحية لكل زمان ومكان. وما نريد أن نقف عليه في مقاربتنا هذه، هو التوسّل بما قدّمه علماء القرآن من قواعد إجرائيّة، ومقولات كلية، في مدارستهم للقرآن الكريم، والتي من شأنها أن تعين على ضبط معالم النصيّة، وتحديد الشرائط الكفيلة بتحقيق بنية نصية متماسكة.

6. أهم القواعد والمقولات الإجرائية لعلم المناسبة:

فما هي هذه القواعد وما هي هذه المقولات التي بواسطتها تكتشف العلاقات وتحدد الأدوات الرابطة بين الآيات من جهة، والسور من جهة أخرى ؟.

ذلك « أنّ المناسبة بين الآيات والسور تقوم على أساس أنّ النّصّ وحدة بنائية مترابطة الأجزاء، ومهمة المفسر هو محاولة اكتشاف هذه العلاقات أو "**المناسبات**" الرابطة بين الآية والآية من جهة، وبين السورة والسورة من جهة أخرى»[4]، فالعلاقات والمناسبات بين أجزاء النص حاصلة كامنة في ثنايا النص ومسلم بوجودها ابتداء، وعلى القارئ أن يكتشفها، ويبين طبيعتها، ويحدد وظيفتها. والسبيل إلى إدراك ذلك هو اتّباع استراتيجية معينة، والتزام خطة منهجية، يوردها "**السيوطي**" في كتابه "**معترك الأقران**" وهي قاعدة

[1]- ينظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط5، س2004م. ؛و، ابن طباطبا أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر، تح: عبد العزيز ناصر المانع، دار الكتب العلمية، لبنان،1985. وغيرهما...

[2]- محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، س2009، ص 41.

[3]- ينظر، كتب لسانيات النص حول المعايير النصية

[4]- ناصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 160.

تأسيسية، استند عليها غيره من علماء القرآن، كما يشير إلى ذلك "**البقاعي**" في كتابه "**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**"[1]، وقد نقلها عن شيخه الإمام "**أبي الفضل محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي**". و"**السيوطي**" كما ذكرت سالفا يكاد يقدم بذلك قاعدة تأسيسية، تعين الباحث في علم المناسبة على الإحاطة بجميع أنواع الروابط الحاصلة بين أجزاء القرآن، وتمكنه من اكتشاف أسرار نظم الآيات والسور، يقول الإمام "**السيوطي**": « الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين أجزاء القرآن، فإذا فعلته بين لك وجه النظم مفصلا بين آية وآية في كل سورة و سورة»[2]. فهو بهذا، أي "**السيوطي**" وباقي علماء القرآن يقدّمون منظومة إجرائيّة تتكون من مراحل معينة، تؤول في نهاية الأمر إلى ما يتحقق أو ما ينكشف به انسجام النص وتماسك أجزائه[3]. وهي مراحل تتم بحسب تفاعل القارئ، تفسيرا وتأويلا، مع النص القرآني؛ حيث يستهل الباحث عمله بتحديد الغرض الكلي للسورة، والمتمثل في مضمونها الدلالي. ثمّ النّظر في ما تحتويه من موضوعات. بعدها ينظر في مراتب هذه المقدمات، الموضوعات الجزئية، واستكشاف العلاقات بينها. ليصل من وراء ذلك إلى ما يتطلع إليه السامع في الوقوف على الهدف المبتغى والأثر المراد من الخطاب. واعتماد هذه الإجراءات واتّباع هذه المراحل، كما يرى "**السيوطي**"، هي السبيل الموصلة إلى معرفة مختلف الروابط بين أجزاء القرآن، والوقوف على نظمه وأسرار ترتيبه. وما يتّضح من كلام "**السيوطي**"، هو أنّ علماء القرآن في بحثهم عن وجوه المناسبة بين أجزاء القرآن يعضده المنطلق الذي اعتمدوه، وهو أنّ القرآن الكريم خطاب كليّ شامل، انسبكت أجزاؤه بنويّا وانحبكت دلاليّا، حتى أنّهم اعتبروا النّصّ الكريم كلّه آية واحدة، كما يؤكّد "**الزركشي**". فتمكنوا بهذا المنهج العملي من تجاوز الجملة في حدودها الضيّقة، إلى النص بأفقه الواسع وبأبعاده ذات الطابع الكلي الشمولي الإعجازي.

لقد غدا علم المناسبة في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة قاعدة نصيّة يتأكد من خلال مبحثه، على تماسك النّصّ في تعالق أجزائه، وانسجام الخطاب في تناغم دواله مع العالم الخارجي غير اللغوي، وذلك عبر استكشاف هذه الروابط وتحديد هذه الآليات والوقوف على مختلف وظائفها. فاللغة، كما يقول "**حامد أبو زيد**": « آلياتها الخاصة التي بها تمثل الواقع ، فهي لا تمثل الوقائع تمثيلا حرفيا بل تصوغها صياغة رمزية وفق آليات وقوانين خاصة... قد تكون العلاقات بين الوقائع الخارجية مفتقدة، ولكن اللغة تصوغ هذه "**الوقائع**" في علاقات لغوية، والنّصّ القرآنيّ، وإن كانت أجزاؤه تعبيرات عن وقائع مفترقة، نص لغوي له قدرة على تنمية وإبداع علاقات خاصة بين الأجزاء. وهي العلاقات أو المناسبات التي يبحث فيها هذا العلم»[4].

---

[1]- ينظر برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية بيروت، ج1، ص 11.

[2]- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي القاهرة،ط1،س 1973، ج1، ص 62.

[3]- ينظر محمد عبد الباسط أبو السعود، النص و الخطاب "قراءة في علوم القرآن"، ص 21-22-23.

[4]- حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، ص 161.

إنّه العلم الذي يكاد يكون هو جوهر الدّرس النّصّيّ الحديث الذي يتمحور حول قضايا الخطاب والنص وتحديد المعايير النصية، سواء باعتبار ما يتصل بالنص في ذاته أو بمستعمليه أو بسياقه الخارجي[1]، وما إلى ذلك من مختلف المنظورات الأساسية والمقاربات التي جاء بها كل من "**هاليداي**" و"**رقية حسن**"، و"**فان ديك**"، و"**براون**" و"**يول**"، ضمن أبرز قطاعات الدّرس النّصّيّ والمتمثلة في لسانيّات النصّ ولسانيات الخطاب، وتحليل الخطاب.

إنّ المتأمّل، في نص "**السيوطي**" وغيره من النصوص التراثية، يجد فيها تأصيلا تنظيريا، إضافة إلى ما فيها من إجراءات تطبيقيّة تؤسّس لرؤية كليّة؛ تنظر إلى النّصّ ككلّ متكامل، وتتعامل معه كبنية متماسكة الأجزاء، منسجمة الدلالات. فلا تقف عند الشاهد المفرد، ولا تنظر إليه معزولا عن سياقه المقالي، ولا مقتطعا من سياقه الاستعماليّ، بل تنطلق من استراتيجيّة تنبئ عن ممارسة نصّيّة تصبو إلى الوقوف على مظاهر التّرابط والتّناغم داخل النّصّ القرآنيّ. حيث يبتدئ الباحث بالعمل على تحديد الغرض، والقصد الذي سيقت لأجله الآية والسورة. ليمر بعدها إلى ضبط ما يندرج تحت الغرض العام من موضوعات وما تحكمها من علاقات، باعتبار مراتبها ووضعياتها من الغرض الكلي، وصولا إلى النّظر فيها يستشرفه المتلقي من أحكام ولوازم، ليقف عليها وعلى الهدف من ورائها. وفي خضمّ ذلك يبين "**السيوطي**" بأنّ ذلك هو جوهر البلاغة وسرّ النّظم القرآنيّ. إنّها البلاغة التي لا تقف عند حدود العبارة، ولا تكتفي بالجزئيات منفصلة عن بعضها بعض، وذلك هو المنظور الكلي والبعد الكلي الذي يعين على فهم صحيح وضبط سليم لما بين آيات القرآن وسوره من حسن ترابط وجمال نظم.

وتعقيبا لما ذكرناه، يجدر بنا أن نشير بأنّ القواعد الكليّة والمقولات الإجرائيّة المؤسّسة لنصّيّة الخطاب، في تماسكه وانسجامه، حسب ما بدا لنا من خلال قراءتنا المتواضعة، تنبئ عن نظرات تراثيّة رائدة تحمل الكثير من الجهود والأبعاد التي لها صلة ببلاغة الخطاب، ومقاربة المعنى، وانسجام النص وتماسك أجزائه، وغيرها من الموضوعات التي هي بحق إسهامات تحتاج إلى إعادة فهم، وقراءة جديدة. وتلك هي سنة البحث المنبنية على الثراء والنماء والإضافة بحسب ما يستجد في ميدان البحث.

ذكرنا لهذه الملاحظة هو من باب لفت الانتباه إلى ما يزخر به تراثنا من كنوز وأسرار. وحتى لا نحيد عن موضوعنا، آثرنا أن نحمل الرأي حول ما يبدو لنا من إسهامات تحتاج إلى فحص وتمحيص، نبتغيها- أي هذه الملاحظة- أن تكون مدعاة للبحث.

7. طبيعة العلاقات التّرابطيّة داخل النصّ القرآنيّ:

وعودا على بدء، واستكمالا لما ذكرناه حول أهمّ المقولات الإجرائية والقواعد الكلية المؤسسة لممارسة نصيّة حقيقيّة في تراثنا- ربما تفوق ما توصل إليه الباحثون المعاصرون- ممارسة انبنت على الإيمان بوحدة النص القرآني، وعملت على فحص مظاهر التعانق بين أجزائه. لأنّ فائدة هذا العلم، علم المناسبة، كما يؤكد "**الزركشي**" هو «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء»[2] . ولكشف مظاهر الاتساق والانسجام فيه، لأنّ القرآن الكريم، كما يذكر "**الزركشي**"، نقلا عن القاضي "**أبي بكر بن العربي**"، ارتبطت آياته بعضها ببعض حتى كانت كالكلمة الواحدة

[1]- ينظر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند ، وولفجانج درسلر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص 21.

[2]- البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 41.

متسقة المعاني منتظمة المباني[1] قلنا، ولكشف هذه المظاهر لابد من معرفة وجه المناسبة، وتحديد طبيعة العلاقة الرابطة بين الأجزاء، وهي ترجع في مجملها إلى «معنى ما رابط بينهما، عامّ أو خاصّ، عقليّ أو حسّيّ أو خياليّ، وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التّلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول... أو التلازم الخارجي؛ كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر»[2]. فهي إذن علاقة لا يمكن أن تكون إلا واحدة من أنواع العلاقات التالية، والتي نرى، حسب ما فهمناه من نص "**الزركشي**"، بأنّها ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول** ويتمثل في العلاقات الداخليّة الباطنيّة وتشمل كل ما يدل على المعاني ويرتبط بالمفاهيم. وهي علاقات يمكن اكتشافها واستنتاجها ممّا هو مصرّح به ظاهريّ أو ممّا هو متضمّن ويتوصّل إليه باستخدام العقل والمنطق.
- **النوع الثاني** علاقات ظاهريّة شكليّة تتحقّق من خلال اللّغة والأسلوب ومختلف الطرق الأدائية التعبيرية.
- أما **النوع الثالث** والأخير، فيتجلى في التلازم الخارجي، وهو ارتباط النص بالعالم الخارجي أي الواقع غير اللغوي.

ونجمل القول بأنّ هذه الرّوابط الّتي تسنّى لنا استخراجها من هذا النص الصادر عن الإمام "**الزركشي**"، والتي اعتمدها الإمام "**السيوطي**" بدوره في مختلف مؤلفاته التي تدور في فلك علوم القرآن، قلت، هذه الروابط هي مظاهر تدل على درجة الاتّساق الحاصل بين أجزاء النّصّ، والتّماسك المحكم بين وحداته. كما تشير هذه المظاهر من جهة أخرى على مدى انسجام النص مع العالم الخارجي. وعلى كل فهذه الروابط لا تخرج عن كونها علاقات لغوية بنيوية، وعلاقات دلالية مفهومية، وعلاقات سياقية خارجية، متضافرة متكاملة فيما بينها.

والذي لابد من التنويه به، والإشارة إليه في هذا المقام، هو أنّ هذه العلاقات قد جاءت مجسدة في أبحاثهم التطبيقية ربما تحت مصطلحات بلاغية متعددة ومتنوعة. إلاّ أنّ المؤكّد في كلّ ذلك أنّها تمثل شبكة اصطلاحية تدور في فلك نصيّة الخطاب القرآنيّ.

وهي، كما يبدو لنا، شبكة تمخضّت عن المقوّمات النّصيّة بمفاهيمها اللّغويّة والدّلاليّة والتّداوليّة حيث استثمرت كل ما هو صوتي بنوي، ودلالي مفهومي، وسياقي استعمالي، وربطت بينها لتجعل منها مقومات أو دعائم تدل على وحدة النص القرآني، وتشير إلى بنيته المتماسكة المنسجمة. وحسبنا الاكتفاء هنا بما أشار إليه علماء القرآن وكذا المفسرون من روابط بنوية ودلالية وسياقية في تعليلهم للترتيب الحاصل بين سورتي "**الفيل**" و"**قريش**" مثلا وما تحقق من وراء ذلك من اتساق وانسجام. وهو فعلا نموذج يشير إلى طريقة تعامل علمائنا مع القرآن الكريم وفق وجهة كلية، وبكيفية تنبئ عن ممارسة نصية واعية، تنظر إلى كلام الله ﷻ، على أنّه كلّ متكامل؛ متلاحم الأجزاء، منسجم المعاني والدلالات.

وبما أنّ الموضوع قد لا يسع لاستيعاب كل المباحث المتعلقة بعلم المناسبة، سواء ما اتصل بالتناسب الجزئي الذي يخص الآية الواحدة، أو ما اتصل بالتناسب الكلي فيما يخص العلاقات بين الآيات والسور، وهي مباحث بل ظواهر نصية ترتبط بالجوانب اللغوية والدلالية والتداولية على غرار الإيغال والتوشيح والتمكين والإجمال والتفصيل وغير ذلك من القضايا التي تناولها علماء القرآن في هذا المجال. نقول هي مباحث تقصر طاقاتنا وتعجز كما يقصر بحثنا عن الإلمام بها، وإيفائها حقها. فحسبنا الإشارة هنا إلى هذه

[1]- المصدر السابق، ج 1، ص 42.
[2]- المصدر نفسه، ج 1، ص 41 .

المجهودات الجبارة، والأعمال الجليلة التي تستدعي منا إعادة قراءتها والعمل على استثمارها في ما يخدم البحث العلمي والبناء الحضاري. ومجمل القول، أنّ ما توصّل إليه العلماء في هذا المجال من روابط وإشارات تخص العلاقات الشكلية والدلالية والسياقية بين مختلف أجزاء القرآن؛ آيات وسورا، هي معالم وملامح تنبئ عن ممارسة نصية اشتغل من خلالها العلماء على ضبط بنية الخطاب القرآني، وتحديد معالمه النصية.

8. مدى استثمار هذه الإشارات في حقل الدّراسات الأدبية و النّقدية:

ويبقى التساؤل المطروح في هذا المقام هو، لم بقيت هذه المباحث بوجوهها البلاغيّة والإعجازيّة والدّلاليّة مقصورة على الدّرس القرآنيّ؟ بمعنى لماذا لم تستثمر هذه الجهود، ولم تستغل هذه الظواهر، في بحث آليات النص الأدبي، والكشف عن الخصوصيات النّصيّة، والعناصر المشكلة للخطاب الأدبي؟.

لقد استطاع علماء البلاغة والنقّاد بالفعل، قديما وحديثا، التفطّن لكثير من الخصائص والمعايير التي اصطبغ بها النصّ الأدبيّ العربيّ في شكله و في مضمونه، من قبيل الإشارة إلى وحدة الوزن والقافية، وكذا وحدة البيت في استقلاليته بما يتميز به من اكتمال في المعنى واتساق في المبنى، والحديث عن وحدة الموضوع، والوحدة العضوية خاصّة مع النّقاد المحدثين؛ بعد اطّلاعهم على الآداب الأجنبية وتأثّرهم بالنّقّاد الغربيين، وهي في حقيقة الأمر إشارات رائدة في حقل الدّرس اللّسانيّ النصّيّ لو أحسن توظيفها، و تمّ استثمارها.

هذا بالإضافة إلى الكثير من الظواهر والمفاهيم التي أثارها علماء البلاغة في ثنايا مباحثهم، وهم بصدد الاشتغال على النصوص الأدبية، وبالأخصّ في تتبّعهم لأسرار القرآن الكريم واستنباطهم لخواص نظمه الراقي. وهي مفاهيم وقضايا التقى فيها علماء القرآن مع البلاغيين. مفاهيم كما ذكرنا سلفا، تنبئ عن ممارسة نصّيّة، أدركوا من خلالها تماسك أجزاء القرآن الكريم في نظمه وفي معانيه. إلاّ أنّ هذه المفاهيم وهذه المظاهر؛ على غرار التّصدير و التّوشيح والإيغال والتّمكين وحسن الخاتمة والتتميم وغيرها من المظاهر – هي مباحث تحتاج إلى دراسة خاصة بها – حسب رأينا، لم يتح لها المجال بالكيفية الملائمة لترسم أفقا معرفيا في حقل الدراسات الأدبية والنقدية.

إنّ جل القضايا التي اشتغل عليها علماء القرآن، والمباحث التي أثاروها في درس المناسبة، بقيت منحصرة في دائرة النصّ القرآنيّ الكريم. وذلك لأسباب متعددة نحاول أن نجتهد في تحديدها من جهة، وندعو الباحثين إلى استقصائها من جهة أخرى.

فالذي يبدو لنا هو أنّ قداسة القرآن الكريم جعلت العلماء والباحثين يعزفون- إن صح التعبير- عن دراسة الأعمال الأدبية بنفس الطريقة التي عومل بها القرآن الكريم على اعتباره نصا إلهيا مقدسا، ولا يمكن أن ترقى أعمال البشر إلى هذا المستوى من الإبداع والعظمة.

ينضاف إلى ذلك، تلك القطيعة التي حدثت بين الدراسات الإسلامية والدراسات الأدبية ربما لاعتبارات عقدية ومنهجية. ثم كذلك ما شهده هذا القطاع المعرفي، أي علوم القرآن، من جمود وركود، تتداخل عوامل كثيرة ومتعددة، تكون بحسب رأينا سببا في هذا الأمر، وهي عوامل سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة ترتبط بتاريخ الأمّة العربيّة الإسلاميّة وما عاشته من ظروف ووقائع، ندعو القارئ الكريم إلى مراجعتها في كتب التاريخ والفكر الإسلامي.

9. خاتمة:

وعلى كلّ فالمقام لا يسعنا لإثارة كلّ هذه القضايا نظرا لتشابكها ولتعدّد جوانبها، ثمّ لصعوبة الإلمام بها، والإحاطة بتفاصيلها. وحسبنا أن نكون قد ألمحنا إلى بعض النقاط التي قد تستثير الباحثين، والمهتمين للاشتغال عليها وتوضيح ما يستدعي التوضيح. ونختم هذا الموضوع، بالإشارة إلى أنّ مبحث المناسبة في علوم القرآن يكاد يقدم للدّرس اللّسانيّ النّصيّ منظومة مفاهيمية واصطلاحية يلتقي فيها الجزئيّ مع الكليّ، والبنويّ اللّغويّ مع الدّلاليّ الموضوعي. يلتقي فيها الجانب الشكلي الخالص للنص في انسباك أجزائه، مع العالم الخارجي في تناغم مشاهده وانحباك مكوناته.

وتبقى الضّرورة ملحّة في استثمار ما توصّل إليه العلماء ضمن هذا المبحث، وغيره من مباحث علوم القرآن، فيما يتعلّق بمفهوم النّصّ والخطاب، والسيّاق بأنواعه، والحبك والسبك بمختلف مظاهرهما، وما إلى ذلك من النّقاط التي نراها دعائم، قد تساهم في التّأسيس للدّرس اللّسانيّ النّصّيّ ، ولكن وفق خصوصيّات الثّقافة العربية الإسلاميّة.

10. قائمة المراجع:

1/ ابن طباطبا أبو الحسن محمد بن أحمد، عيار الشعر، تح: عبد العزيز ناصر المانع، دار الكتب العلمية، لبنان،1985.

2/ إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند و ولفجانج دريسلر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، س1999.

3/ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت س 2006م.

4/ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

5/ الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دت.

6/ جلال الدين السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي القاهرة، ط1،س 1973.

7/ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، ط5، س2004م.

8/ العلوي يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

9/ محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب، قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، س2009.

10/ ناصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي ، المغرب، ط 6، س 2005.